

نحو النص في التراث اللغوي العربي- نظرية النظم نموذجا-

The grammar of the text in the arabic linguistic heritage

- Synthesis theory model -

بودانة طه الأمين*

تاريخ القبول 12/11/2018

تاريخ تقديم البحث 2018/03/05

Abstract :

The theory of synthesis is a qualitative leap in the arabic language lesson. It was transferred from the field of analysis to the field of structure. The first theories that referred to the concept of " grammar of the text" were the concepts that are essentially related to the text as an integral linguistic unit instead of the sentence, In his theory of "the cooperation of indexes", we find that he is derived from two great tributaries of the tributaries of human thought. The first is the concept of "suspension" or "contextual relations" which is the central idea in the theory of synthesis, and the second is the theory of "context of situation" by his teacher, Firth. The Quranic text was the first catalyst that prompted Al-Jarjani (d. 471 e) to put forward this theory. The mystery of miracles in the Holy Quran lies in its wonderful structure, which he calls the synthesis which is the meaning of grammar and its provisions.

Key words: grammar, text, arabic, linguistic, heritage, synthesis, theory, model.

ملخص:

تعد نظرية النظم قفزة نوعية في الدرس اللغوي العربي؛ إذ نقلته من ميدان التحليل إلى ميدان التركيب، فكانت أولى النظريات التي أشارت إلى مفهوم "نحو النص"، من خلال ما طرحته من مفاهيم ترتبط أساسا بالنص كوحدة لغوية متكاملة بديلا عن الجملة، ولا نكاد نجد نظرية من النظريات اللغوية في العصر الحديث إلا وقد استفادت من نظرية النظم؛ فهي تمام حسان في نظريته "تضافر القرائن"، نجده قد استقى من رافدين عظيمين من روافد الفكر الإنساني؛ أولهما: ما يعرف بفكرة "التعليق" أو "العلاقات السياقية"، وهي الفكرة المحورية في نظرية النظم الجرجانية، وثانيهما نظرية "سياق الحال" "Context of situation" لأستاذه "فيرث" "Firth". وقد كان النص القرآني هو المحفز الأول الذي دفع بالجرجاني (ت 471هـ) إلى طرح هذه النظرية؛ ذلك أن سر الإعجاز في القرآن الكريم يكمن في تركيبه البديع، وهو ما يسميه بالنظم أي توشي معاني النحو وأحكامه. الكلمات المفتاحية: نحو؛ النص؛ التراث؛ اللغوي العربي؛ نظرية؛ النظم.

* قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات ، جامعة الأغواط، الجزائر.

مقدمة:

إن العلاقات التضامية هي علاقات بنائية "Structural relations" تعمل في ظل القرائن اللفظية الأخرى على إنتاج سلاسل لغوية لا متناهية؛ فالوحدات اللغوية لا ترتبط فيما بينها لتشكيل سلسلة لغوية معينة إلا بواسطة قرينة التضام، وقد يُشترط لتشكيل هذه السلسلة اللغوية أن تكون بعض الوحدات اللغوية مطابقة للأخرى في الجنس والعدد؛ وهنا تتدخل قرينة المطابقة. كما قد يُشترط لهذه الوحدات أن تكون على ترتيب معين لا تخالفه؛ وهنا تتدخل قرينة الرتبة، وهكذا دواليك مع بقية القرائن اللفظية؛ فالتضام هو بمثابة الإسمت الذي يربط بين لبنات ذات صفات محددة، فكل لبنة مفتقرة في تكوين جدار ما إلى نظيرتها كافتقار الوحدة اللغوية في نسيج لغوي ما إلى ضميمتها.

ومن خلال العلاقات التضامية تتجلى فكرة "التعليق" - وهي الفكرة المحورية في نظرية النظم- في أجلى صورها ويبرز بعدها النسبي؛ إذ لا قيمة لأية وحدة لغوية في ذاتها، إنما قيمتها من خلال تضامها مع مثيلاتها من الوحدات اللغوية الأخرى المتجاورة معها في نسق لغوي واحد؛ وهذا ما سعى نَحْوُ النص إلى تأكيده عبر جهود مجموعة من اللغويين الغربيين بداية من خمسينيات القرن العشرين.

1- مفهوم النظم لغة واصطلاحاً:

النظم لغة هو: التأليف وضم شيء إلى شيء آخر؛¹ يقال: "نظمت اللؤلؤ"؛ أي: "جمعته في السلك"، والتنظيم مثله. ومنه: "نظمت الشعر"، والنظام: الخيط الذي يُنظم به اللؤلؤ، وكل شيء قرنته بآخر وضممت بعضه إلى بعض فقد نظمته.

اصطلاحاً هو: تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض؛ فالنظم في الكلام هو تأليف الكلمات في جمل وتراكيب على أساس المعاني الوظيفية التي يؤديها في التركيب، أو ما يُعرف بـ"معاني النحو". يقول عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ): «اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي تُهتج فلا تزيع عنها، وتحفظ الرسوم التي رُسِمت لك؛ فلا تُخل بشيء منها».²

¹ - ينظر: مجد الدين أبو طاهر الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تح: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة: بيروت- لبنان، ط: 8، 1426هـ- 2005م، ص: 1162.

² - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح: محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ط: 3، 1413هـ - 1992م، ص: 56.

2- النظم ومعاني النحو:

يؤكد عبد القاهر الجرجاني على أن المتكلم يتوخى في نظمه للكلام معاني النحو؛ أي أنه ينظم كلامه على أساس قواعد النحو وقوانينه، فيتوخى ما يكون مبتدأ، أو خبراً، أو فاعلاً، أو مفعولاً...، إلا أن هذا القول قد يُعترض عليه - ولا سيما من الباحثين المعاصرين - بأنه قمع لقرائح الشعراء والأدباء بالزامهم بقوالب النحو الجامدة، وقوانينه الصارمة، ومنطقه المتعسف؛ فالإبداع لا يكون إلا بعيداً عن هذه القيود،¹ وقد أورد الجرجاني نفسه هذا الاعتراض؛ فقال: «قالوا: لو كان النظم يكون في معاني النحو لكان البدوي الذي لم يسمع بالنحو قط، ولم يعرف المبتدأ والخبر وشيئاً مما يذكره لا يتأتى له نظم الكلام، وإنا لنراه يأتي في كلامه بنظم لا يحسنه المتقيد في علم النحو»²، ورد عليه بقوله: «إن الاعتبار بمعرفة مدلول العبارات، فإذا عرف البدوي الفرق بين أن يقول: "جاءني زيد راكباً"، وبين قوله: "جاءني زيد الراكب" لم يضره أن لا يعرف أنه إذا قال "راكباً" كانت عبارة النحويين فيه أن يقولوا في "راكباً" أنه حال، وإذا قال: "الراكب" أنه صفة جارية على "زيد"»³.

من هنا نفهم أن هناك مستويان من المعنى متغايران متباينان؛ أحدهما: يتعلق بمعاني الألفاظ ودلالات التركيب، والآخر يتعلق بالمعاني النحوية، والذي يراعيه المتكلم في نظم كلامه هو المستوى الأول، أما المستوى الثاني فإنما يأتي تبعاً له؛ كما يقول أبو هلال العسكري (ت 395هـ): «إذا أردت أن تضع كلاماً فأخطر معانيه ببالك، وتوقَّ له كرائم اللفظ، واجعلها على ذكر منك ليقرّب عليك تناولها ولا يتعبك تطلبها...»⁴؛ فالناظم للكلام يستحضر المعاني في نفسه ويتخير لها الألفاظ، ثم تأخذ هذه الألفاظ مواقعها بحسب المعنى الذي يقصده المتكلم، وهو ما عناه الجرجاني بـ "معاني النحو".

فالجرجاني لا يقصد بتوخي معاني النحو أن العرب كانوا يتوخون القواعد النحوية المعروفة لدينا اليوم؛ فالعرب كانت تحكمهم سليقتهم اللغوية فينطقون لغة سليمة جارية على القواعد الراسخة في اللاوعي الجمعي لهم، وحالهم مع معاني النحو كحال شعرائهم مع

¹ - ينظر: أحمد مطلوب، عبد القاهر الجرجاني- بلاغته ونقده، وكالة المطبوعات: بيروت، ط: 1، 1393هـ- 1973م،

ص: 28.

² - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 418.

³ - المصدر السابق، ص: 418.

⁴ - أبو هلال العسكري الحسن بن عبد الله، الصناعتين، تج: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة

العصرية: بيروت، 1419هـ- 1999م، (د، ط)، ص: 133.

بحور الشعر وتفعيلاته؛ فهم يُجرون شعرهم مع أمواجها من غير أن يُدركوا هذه البحور وتفعيلاتها بالتفصيل الذي نعرفه نحن اليوم.¹

3- العلاقات النصية عند عبد القاهر الجرجاني:

تتمثل العلاقات النصية عند الجرجاني في ثلاث ظواهر؛ هي:

- البناء: البناء عند عبد القاهر الجرجاني هو "اختيار المباني التي يقدمها علم الصرف للتعبير عن المعاني النحوية"² وذلك كأن يُبنى لمعنى الفاعلية "مبنى" هو الاسم المرفوع في بعض المواطن، أو الضمير المتصل في موضع آخر، أو الضمير المستتر في موضع ثالث، وهذا ما يعبر عن الارتباط القوي بين المبنى والمعنى الذي ركز عليه عبد القاهر الجرجاني، وجعله مكمناً للمزية لديه.

- التعليق: لا نجد عند الجرجاني (ت 471هـ) نصاً صريحاً يعبر فيه عن معنى التعليق، بل غاية ما نجد إشارات عامة جاءت في سياق تفسيره للنظم، من ذلك قوله: «واعلم أنك إذا رجعت إلى نفسك علمت علماً لا يعترضه الشك، أن لا نَظَمَ في الكلام ولا ترتيب، حتى يُعَلَّقَ بعضها ببعض، ويُبنى بعضها على بعض، وتُجَعَلَ هذه بسبب من تلك؛ هذا ما لا يجهله عاقل، ولا يخفى على أحد من الناس.

وإذا كان كذلك، فبما أن ننظر إلى التعليق فيها والبناء، وجعل الواحد منها بسبب من صاحبتها، ما معناه وما مَحْصُولُهُ؟ وإذا نظرنا في ذلك، علمنا أن لا محصول لها غير أن نَعْمَدَ إلى اسمٍ فَتَجَعَلَهُ فاعلاً لفعلٍ أو مفعولاً، أو نَعْمَدَ إلى اسمين فَتَجَعَلَ أَحدهما خبراً عن الآخر، أو تُتْبِعَ الاسمَ اسماً على أن يكون الثاني صفة للأول، أو تأكيداً له، أو بدلاً منه، أو تَجِيءَ باسمٍ بَعْدَ تمام كلامك على أن يكون الثاني صفةً، أو حالاً، أو تمييزاً، أو تتوَحَّى في كلامٍ هو لإثبات معنى أن يصير نَفِيّاً أو استفهاماً أو تمنياً، فتُدْخِلَ عليه الحروفَ الموضوعَ لذلك، أو تُرِيدَ في فعلين أن تجعل أحدهما شَرْطاً في الآخر، فتجيء بهما بعد الحرف الموضوع لهذا المعنى، أو بَعْدَ اسمٍ من الأسماء التي ضَمِنَتْ معنى ذلك الحرف، وعلى هذا القياس».³

والتعليق ثلاثة أقسام: تعلق اسم باسم، وتعلق اسم بفعل، وتعلق حرف بهما:

¹ - محمد حسن مصطفى، فكرة النظم بين الحقيقة والوهم، مقال منشور بمجلة أبحاث كلية التربية، جامعة الموصل، المجلد: 6، العدد: 1، 1427هـ- 2007 م، ص: 253.

² - ينظر: تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب: القاهرة، ط: 5، 1427هـ- 2006م، ص: 187.

³ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 55.

● فالاسم يتعلق بالاسم بأن يكون خبرا عنه، أو حالا منه، أو تابعا له، أو صفة، أو تأكيدا، أو عطف بيان، أو بدلا، أو بأن يكون الأول مضافا إلى الثاني، أو بأن يكون الأول يعمل في الثاني عمل الفعل، والثاني يكون في حكم الفاعل له أو المفعول؛ وذلك كقوله تعالى: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ [الأنبياء: 3]، أو بأن يكون تمييزا قد جاء منتصبا عن تمام الاسم؛ أي أن يكون فيه ما يمنع الإضافة؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [آل عمران: 91].

● والاسم يتعلق بالفعل بأن يكون فاعلا له أو مفعولا؛ فيكون:

- مصدرا قد انتصب به؛ وهو المفعول المطلق، كقولنا: "ضربت ضربا".
- مفعولا به؛ كقولنا: صنعت معروفا.
- مفعولا فيه؛ كقولنا: خرجت يوم الجمعة، ووقفت أمامه.
- مفعولا معه؛ كقولنا: جاء البرد والطيا لسة.
- مفعولا له؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 114].

- أو يكون منزلا من الفعل منزلة المفعول؛ وذلك في خبر "كان" وأخواتها.
- وكذلك الحال والتمييز المنتصب عن تمام الكلام؛ مثل: طاب زيد نفسا.
- والاسم المنتصب على الاستثناء، كقولنا: "جاء القوم إلا زيدا"؛ لأنه من قبيل ما ينتصب عن تمام الكلام.

- ج- وأما تعلق الحرف بالاسم والفعل فيكون على ثلاثة أضرب:
- أحدها: أن يتوسط الحرف بين الفعل والاسم؛ كما في حروف الجر التي تُعدي الأفعال إلى ما لا تتعدى إليه بنفسها من الأسماء، وواو المعية، و"إلا" التي تُعد بمنزلة "واو المعية" في التوسط وعمل النصب في المستثنى للفعل.
- ثانيها: وهو العطف؛ وهو أن يدخل الثاني في عمل الأول، كقولنا: "جاء زيد وعمرو"، و"رأيت زيدا وعمرا"، و"مررت بزيد وعمرو".
- ثالثها: تعلق الحرف بمجموع الجملة؛ كتعلق حرف النفي، والاستفهام، والشرط، والجزاء، بما يدخل عليه.

فهذه هي الطرق والوجوه في تعلق الكلم بعضها ببعض، وهي كلها تدور حول توكي معاني النحو وأحكامه.¹ فالمعاني تترتب في النفس أولاً، ثم يُتبع الناظم تلك المعاني بالألفاظ التي يجب أن يُقتفى في نظمها آثار المعاني وتُرتب حسب ترتيب المعاني في النفس، فليس النظم ضم الشيء إلى الشيء كيف ما جاء واتفق، بل هو نظير النسيج والصياغة والتأليف والبناء والوشى والتحبير، وما أشبه ذلك مما يجب فيه أن يكون لكل جزء من أجزائه في موضعه الذي وُضع فيه علّة تقتضي كونه هناك، ولو وُضع في مكان غيره لم يصلح.²

ويحسُن بنا في هذا المقام أن نذكر نموذجين على الأقل تناول فيهما عبد القاهر الجرجاني فكرة التعليق؛ ففي قول ابن المعتز:

واني على إشفاق عيني من العدى ** لتجمع مني نظرة ثم أُطرقُ

حيث يرى الجرجاني (ت 471هـ) أن سر الإبداع في هذا البيت يكمن في إعادة تشكيل الشاعر للألفاظ وفق تصوّره الخاص مع صحة استخدامه لمعاني النحو؛ حيث جاء بـ"إنّ" المؤكدة في أول الكلام، وهو ما انجر من وراءه تأخير اللام كي تدخل في الخبر زيادة في التوكيد، ثم جاء بـ"نظرة" نكرة محدّدة بالتاء ليفيد أنها استراق سريع للنظر، وعطف بـ"ثم" لأنه يتراخى في إطراره، ومما يزيد في كلامه حلاوةً وطلاوةً تلك الجملة المعترضة بين "إنّ" وخبرها؛ وهي قوله: "على إشفاق عيني من العدى".³ وقول الآخر:

سالت عليه شعابُ الحي حين دعا ** أنصاره بوجوه كالدنانير⁴

فالشاعر إنما انتهى إلى ما انتهى إليه من الحسن في نظمه بما توخاه من وضع الكلام من التقديم والتأخير، فلو عمدنا إلى هذه الألفاظ التي علّقها الشاعر بهذا التعليق فأزلناها عن مواضعها التي وُضعت لها؛ فقلنا - مثلاً - "سالت شعابُ الحي بوجوه كالدنانير عليه حين دعاه أنصاره"، لما وجدنا لهذا النظم تلك المزية التي كنا نجدها فيه.⁵

● ج- التأليف: إذا كانت الألفاظ هي المادة الخام للبناء اللغوي، فإن هذا البناء لا يقوم إلا بوجود عنصر التنسيق والتأليف بينها كي تظهر في شكل فني متكامل؛ هذا التأليف في نظرية النظم يقوم أساساً على معاني النحو.

¹ - المصدر السابق، ص: 14.

² - المصدر نفسه، ص: 50، 51.

³ - المصدر السابق، ص: 98، 99.

⁴ - ينظر: أبو تمام حبيب بن أوس، الوحشيات، تج: عبد العزيز الميمني، دار المعارف: القاهرة، ط: 3، (د، ت)، ص: 69.

⁵ - ينظر: الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 99.

فعلى الناظم أن يتوخى معاني النحو بحسب المعاني المترتبة في نفسه كما عليه كذلك أن يراعي الغرض الذي صاغ من أجله هذا النظم؛ فمعاني النحو تختلف من موضع لآخر حسب المزية التي تلحق بها؛ فإذا كان للتنكير - مثلاً - مزية في موضع فلا يعني ذلك أنه حسن في كل موضع، فاتفاق المعنى النحوي مع الغرض هو الذي يحقق المزية للتركيب. يقول الجرجاني (ت 471هـ) في سياق الحديث عن معاني النحو: «ثم اعلم أن ليست المزية بواجبة لها في أنفسها، ومن حيث هي على الإطلاق، ولكن تعرض بسبب المعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام، ثم بحسب موقع بعضها من بعض، واستعمال بعضها مع بعض».

تفسير هذا: أنه ليس إذا راقك التنكير في "سؤدد" من قوله: "تنقل في خلقي سؤدد"، وفي "دهر" من قوله: "فلو إذ نبا دهر"، فإنه يجب أن يروقك أبداً وفي كل شيء، ولا إذا استحسنت لفظاً ما لم يُسم فاعله في قوله: "وأنكر صاحب"، فإنه ينبغي أن لا تراه في مكان إلا أعطيته مثل استحسانك هاهنا، بل ليس من فضل ومزية إلا بحسب الموضع، وبحسب المعنى الذي تريد والغرض الذي تؤم. وإنما سبيل هذه المعاني سبيل الأصباغ التي تعمل منها الصور والنقوش، فكما أنك ترى الرجل قد تهدى في الأصباغ التي عمل منها الصورة والنقش في ثوبه الذي نسج إلى ضرب من التخيير والتدبير في أنفس الأصباغ، وفي مواقعها ومقاديرها وكيفية مزجها لها وترتيبه إياها، إلى ما لم يتهد إليه صاحبه، فجاء نقشه من أجل ذلك أعجب، وصورته أغرب، كذلك حال الشاعر والكاتب في توحيهما معاني النحو ووجوهه التي علمت أنها محصول "النظم"¹.

وعلى هذا فإن المفاضلة والموازنة بين الأعمال الأدبية لا تقوم على المعاني في حد ذاتها؛ لأن المعنى الواحد يعبر عنه الأديب فيأتي به غفلاً ساذجاً دون أن يكون له مزية تروق لها أذان السامعين، وقد يعبر عنه آخر فيأتي به في صورة تروق وتُعجب، إنما تكون المفاضلة في الصورة التي تظهر بها تلك المعاني؛ هذه الصورة تقوم على أساسين اثنين:

- حسن التأليف بين الكلم؛ ويكون ذلك بتوخي معاني النحو في نظم الكلام.

- ومراعاة الغرض الذي يقتضيه مقام الكلام.²

4- النظم والنص القرآني المعجز:

لقد تبلورت نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني لما تعرض لقضية إعجاز النص القرآني؛ حيث يرى أن سر الإعجاز في القرآن الكريم يكمن في تركيبه البديع، وهو ما

¹ - ينظر: المصدر نفسه، ص: 87، 88.

² - ينظر: محمد عبد الله جبر، الأسلوب والنحو، دار الدعوة: الإسكندرية، 1409هـ - 1988م، (د، ط)، ص: 7.

يسميه "النظم": أي: توخي معاني النحو وأحكامه، يقول في كتابه "دلائل الإعجاز" مبيناً مزايا الإعجاز القرآني: «أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمهم، وخصائص صادفوها في سياق لفظه، وبدائع راعتهم من مبادئ آيه ومقاطعها، ومجاري ألفاظها ومواقعها، وفي مضرب كلِّ مثل، ومساق كلِّ خبر، وصورة كلِّ عظة وتنبيه، وإعلام وتذكير، وترغيب وترهيب، ومع كلِّ حجة وبرهان، وصفة وتبيان، وبهرهم أنهم تأملوه سورةً سورةً، وعشراً عشراً، وآية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمة يُنبو بها مكانها، ولفظة يُنكر شأنها، أو يرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه، أو أخرى وأخلق، بل وجدوا اتساقاً بهر العقول. وأعجز الجمهور، ونظاماً والتاماً، وإتقاناً وإحكاماً، لم يدع في نفس بليغ منهم- ولو حك بيافوخه السماء- موضع طمع، حتى خرست الألسن عن أن تدعي وتقول، وخذيت القروم¹ فلم تملك أن تقول»².

ثم يبدأ بعرض تفصيلي لنظريته التي يسعى من خلالها إلى الوصول إلى حقيقة إعجاز النص القرآني؛ فيقول: «ما أظن بك أيها القارئ لكتابتنا، إن كنت وفيت حقه من النظر، وتدبرته حق التدبر، إلا أنك قد علمت علماً أبى أن يكون للشك فيه نصيب، وللووقف نحوك مذهب، أن ليس "النظم" شيئاً إلا توخي معاني النحو وأحكامه، ووجوه وفروقه فيما بين معاني الكلم، وأنك قد تبينت أنه إذا رُفِعَ معاني النحو وأحكامه مما بين الكلم حتى لا تُراد فيها في جملة ولا تفصيل، خرجت الكلم المنطوق ببعضها في إثر بعض في البيت من الشعر، والفصل من النثر، عن أن يكون لكونها في مواضعها التي وُضِعَتْ فيها موجباً ومقتضى، وعن أن يُتصور أن يقال في كلمة منها: إنها مرتبطة بصاحبة لها، ومتعلقة بها، وكأنه بسبب منها، وإن حسن تصوُّرك لذلك، قد ثبت فيك قدامك، وملاً من الثقة بنفسك، وباعدك من أن تحن إلى الذي كنت عليه، وأن يجزك الإلف والاعتیادُ إليه، وأنك جعلت ما قلناه نقشاً في صدرك، وأثبتته في سويداء قلبك، وصادقت بينه وبين نفسك. فإن كان الأمر كما ظنناه، رجونا أن يصادف الذي نريد أن نستأنفه بعون الله تعالى منك نية حسنة تقيك الملل، ورغبة صادقة تدفع عنك السأم، وأزحية يخفُّ معها عليك تعب الفكر وكد النظر، والله تعالى وليُّ توفيقك وتوفيقنا بمنه وفضله. ونبدأ فنقول: فإذا ثبت الآن أن لا شك ولا مزية في أن ليس "النظم" شيئاً غير توخي معاني النحو وأحكامه فيما بين معاني الكلم، ثبت من ذلك أن طالب دليل الإعجاز من نظم القرآن، إذا هو لم يطلبه في معاني النحو وأحكامه، ووجوه وفروقه، ولم يعلم أنها معدنية ومعانها، وموضعه ومكانه، وأنه لا مُستنبط له سواها، وأن لا وجه لطلبه فيما عداها، غار

¹ - القروم: الفحول.

² - المصدر نفسه، ص: 525، 526.

نفسه بالكاذب من الطمع، ومُسَلَّم لها إلى الخُدَع، وأنه إن أبي أن يكون فيها، كان قد أبي أن يكون القرآن معجزاً بنظمه، ولزمه أن يُثبت شيئاً آخر يكون معجزاً به، وأن يلحق بأصحاب "الصِّرفة" فيدفع الإعجاز من أصله»¹.

وبَيَّن عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ) مزايا إعجاز النص القرآني فقال: «واعلم أنهم في هذا قد أضلوا الهدف، وذلك أنه سؤال لا يتجه حتى يُقدر أن التحدي كان إلى أن يعبروا عن معاني القرآن أنفسهم وبأعيانها بلفظ يشبه لفظه، ونظم يوازي نظمه. وهذا تقدير باطل، فإن التحدي كان إلى أن يجيئوا في أي معنى شاءوا من المعاني بنظم يبلغ نظم القرآن في الشرف أو يقرب منه، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ [هود: 13]؛ أي: مثله في النظم، وليكن المعنى مفتري كما قلتم، فلا إلى المعنى دُعيتم، ولكن إلى النظم، وإذا كان كذلك، كان بيناً أنه بناء على غير أساس، ورمي من غير مرمى، لأنه قياس ما امتنعت فيه المعارضة من جهة، وفي شيء مخصوص، على ما امتنعت معارضته من الجهات كلها وفي الأشياء أجمعها.

فلو كان إذ سبق الخليل وسيبويه في معاني النحو إلى ما سبقا إليه من اللفظ والنظم، لم يسبق الجاحظ في معانيه التي وضع كتبه لها إلى ما يوازي ذلك ويضاهيه، أو كان بشار إذا سبق في معناه إلى ما سبق إليه، لم يوجد مثل نظمه فيه لشاعر في شيء من المعاني لكان لهم في ذلك متعلق. فأما وليس من نظم يقال: "إنه لم يُسبق إليه" في معنى، إلا ويوجد أمثاله أو خير منه في معان أخرى، فمن أشد المحال وأبينه الاعتراض به.

واعلم أننا لو سلمنا لهم الذي ظنوه - على بطلانه - من أن التحدي كان إلى أن يُعبر عن أنفس معاني القرآن بما يشبه لفظه ونظمه، لم نعدم الحجاج معهم، وأن يكون لنا عليهم كلام في الذي تعلقوا به، ودفع لهم عنه. إلا أن العلماء آثروا أن يكون الجواب من الوجه الذي ذكرت، إذ وفق ما نُص عليه في التنزيل، وكان فيه سد الباب وحسم الشُّبه جملةً².

فالجرجاني ما ابتكر نظرية النظم إلا ليبين أن سر إعجاز النص القرآني إنما يكمن في نظمه؛ أي في تركيبه البديع المعجز وتأليفه الباهر.

5- دور نظرية النظم في بلورة علم نحو النص في الفكر اللساني الحديث:

تُعد نظرية "الرمزية في اللغة" للعالم اللغوي الألماني "فنت" من أعظم ما توصل إليه علم اللسان الحديث، والحقيقة أن الدور الأولى لهذه النظرية قد بذرها عبد القاهر

¹ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 525، 526.

² - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 607.

الجرجاني(ت471هـ) في حقل نظرية النظم في حدود القرن الخامس الهجري، فما كان أن أنبتت هذه البذور واكتمل نموها إلا عند الغربيين في العصر الحديث؛¹ ذلك ما نلمسه في قول الجرجاني: « اعلم أن هاهنا أصلاً أنت ترى الناس فيه في صورة مَنْ يَعْرِفُ مِنْ جانبٍ وَيُنْكِرُ مِنْ آخَرٍ؛ وهو أن الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة، لم توضع لِتُعَرَفَ معانيها في أنفسها، ولكن لأن يُضَمَّ بعضها إلى بعض، فيُعرف فيما بينهما من فوائد، وهذا عِلْمٌ شريفٌ، وأصلٌ عظيم. والدليل على ذلك؛ أننا إن زعمنا أن الألفاظ التي هي أوضاع اللغة إنما وُضِعَتْ لِتُعَرَفَ بها معانيها في أنفسها، لأدَّى ذلك إلى ما لا يَشُكُّ عاقلٌ في استحالتِه»؛² فاللغة عند الجرجاني ليست مجموعة من الألفاظ، بل هي مجموعة من العلاقات؛ فالألفاظ في ارتباطها تكون داخل النظم اللغوي مجموعة من الصور تنقل إلينا الشعور أو الفكرة. فالناظم يستعمل ألفاظ اللغة لتحريك الصورة الذهنية الكامنة؛ فلا يمكن - مثلاً - أن يثير اللفظ صورة "طفل" ما لم يكن في ذهن صورة للطفل، إذا كان اللفظ في هذا المجال رمزا ومحركا للصورة.³

يقول حازم القرطاجني(ت684هـ): « وإذا عرفنا كيفية التصرف في المعاني التي لها وجود خارج الذهن، والتي جعلت بالفرض بمنزلة ما له وجود خارج الذهن، فيجب أن يُشار إلى المعاني التي ليس لها وجود خارج الذهن أصلاً، وإنما هي أمور ذهنية محصلها صور تقع في الكلام بتنوع طرق التأليف في المعاني والألفاظ الدالة عليها».⁴

ويقول عبد القاهر الجرجاني(ت471هـ): « إنك تطلب المعنى، وإذا ظفرت به فاللفظ معك وإزاء ناظر»⁵ ليربط الصلة بين اللفظ والمعنى وبين الفكر واللغة برباط وثيق؛ فهذه الصلة الوثيقة بين الفكر واللغة هي ما يؤكد علم النفس اللغوي الحديث في نظرية الترابط العضوي.

وقد توصل الباحث الألماني "فنت" في النظرية الرمزية اللغوية إلى أن اللفظ يكتسي أهمية بانضمامه إلى لفظ آخر، وبما يتولد بينهما من صلة معنوية؛ كأن يكون الثاني خبراً عن الأول أو فاعلاً له أو ما يشابه كل ذلك، فاللفظ والمعنى لا يمكن فصلهما عن بعض؛ فهما وجهان لعملة واحدة. وهذا ما عبر عنه الجرجاني حينما رأى أن ارتباط الألفاظ الدقيق

¹ - ينظر: محمد مندور، الميزان الجديد، القاهرة، ط: 2، 1965-1385هـ، ص: 142 وما بعدها.

² - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 539.

³ - ينظر: وليد محمد مراد، نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند الجرجاني، دار الفكر، دمشق، ط: 1، 1402-1982، ص: 56.

⁴ - حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1406هـ-1986م، ص: 15، 16.

⁵ - الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 62.

داخل النظم يُبرز دورَه الهام في نقل وتحريك الصور بألوانها، وأصواتها، وحركاتها، وإيصالها إلى الذهن جلية واضحة لا غموض فيها. فالجرجاني ينظر إلى النص اللغوي على أنه وحدة فنية متكاملة، ترتبط فيها المضامين والأشكال والأجزاء بأربطة وثيقة تعبر عن الوحدة والالتحام.¹ وقد استطاع عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) أن يفسر نظرية النظم في كتابه "دلائل الإعجاز" تفسيراً لم يُغفل فيه المعاني الثانوية أو الإضافية، وما يُعرف بـ "معنى المعنى"؛ وهي معانٍ تُلتمس في ترتيب الكلام حسب مضامينه في النفس، وحسب دلالاته. وهذه المعاني ترجع إلى الإسناد بأحوال طرفيه، ومتعلقات الفعل، وأحوال الفصل والوصل، والإيجاز والإطناب، وغيرها من أبواب علم المعاني.

لقد جر البحث عن سر الجمال في التركيب القرآني خصوصاً، والتركيب اللغوي العربي عموماً عبد القاهر الجرجاني إلى أن يدرس الجملة العربية دراسة تفصيلية جامعا في تلك الدراسة بين قواعد النحو وآراء أرسطو العامة في الجملة والأسلوب والفصول، ليس هذا فحسب، بل إن نظرية النظم تُعدُّ أجراً خطوة للانتقال بالنحو العربي من حقل التحليل إلى حقل التركيب، أو من حقل الجملة إلى حقل النص؛ فهي هو الجرجاني يضع البذور الأولى مرة أخرى لعلم جديد لم يُكتب له الظهور إلا في العصر الحديث عند الغربيين، ألا وهو "نحو النص" أو "لسانيات النص"؛ ففي أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين توصلت مجموعة من الباحثين الغربيين إلى عدة نتائج تُعدُّ بالفعل استثماراً للأفكار التي طرحها الجرجاني من خلال نظرية النظم؛ فها هو "درسلر" "Dressler" - مثلاً - يشير في صدد حديثه عن بدايات تكون علم لسانیات النص إلى العمل المبكّر لـ "فايل" "H. Weil" 1887م؛ حيث علق تتابع اللفظ على تتابع الأفكار وفصلَ هذا التتابع عن النحو؛ وهذه الفكرة هي حجر الزاوية في فكر الجرجاني، إلا أن الفرق بينهما يتجلى في أن فايل "Weil" يفصل تتابع الأفكار عن النحو، والجرجاني يربط بينهما.²

ثم تعددت المحاولات بعد ذلك، لتُتوج أخيراً بالظهور الفعلي لهذا الوافد الجديد على الساحة اللسانية العالمية من خلال كتاب "التماسك في الإنجليزية" "Cohesion in english" لمؤلفيه "هاليداي" "Halliday" و"رقية حسن" عام 1976، وكتاب "مدخل إلى

¹ - ينظر: وليد محمد مراد، نظرية النظم وقيمتها العلمية، ص: 171.

² - ينظر: سعيد حسن بحيري، علم لغة النص: المفاهيم والاتجاهات، مؤسسة المختار: القاهرة، ط: 2، 1424هـ- 2004م، ص: 18. محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية، المؤسسة العربية للتوزيع، جامعة منوبة، تونس، ط: 1، 1424هـ- 2004م، ص: 76.

لسانيات النص "Introduction to text linguistic" لكل من "درسler" "Dressler"، و"دي بوجراند" "Debeaugrande" عام 1981.

خاتمة: خلاصة ما توصلتُ إليه من نتائج في هذا البحث ما يلي:

- كانت قضية الإعجاز اللغوي للقرآن الكريم هي الباعث الأول للجرجاني (ت471هـ) في طرحه لنظرية النظم؛ حيث يرى أن سر الإعجاز في النص القرآني يكمن في تركيبه البديع، وهو ما يسميه "النظم"؛ أي: توخي معاني النحو وأحكامه.
- إن أهم نقد وُجه لنظرية النظم مفاده؛ أن المتكلم السليقي لا يتوخى في كلامه قواعد اللغة وقوانينها كما تقول النظرية، بل اللغة نفسها هي التي تتوخى هذه القوانين وتنتظم على أساسها؛ فالكلام البليغ أسبق في الوجود من علم النحو وأصوله ورسومه.
- وقد عُقب على هذا النقد بأن المعاني النفسية تستدعي المعاني النحوية وتطابقها، وهذا هو سر نظرية النظم التي يقوم عليها كتاب "دلائل الإعجاز".
- ينظر الجرجاني إلى النص اللغوي على أنه وحدة فنية متكاملة، ترتبط فيها المضامين والأشكال والأجزاء بأربطة وثيقة تعبر عن الوحدة والالتحام، وهذا ما توصل إليه اللغوي الألماني "فنت" في العصر الحديث من خلال نظرية "الرمزية في اللغة".
- توصلت نظرية النظم الجرجانية إلى حقيقة غاية في الأهمية مفادها: أن الكلام المفيد ما هو إلا حصيلة لتضام اللفظ مع غيره من الألفاظ المناسبة له دلالياً، وذلك في إطار العلاقات النحوية الجامعة بينها، وهي بهذا تتقاطع مع ما توصل إليه اللسانيون الغربيون في العصر الحديث؛ بدءاً من دي سوسير "De Saussure" وانتهاءً بعلماء لسانيات النص؛ أمثال: "درسler" "Dressler"، و"هاليداي" "Halliday" و"رقية حسن"، و"دي بوجراند" "Debeaugrande".

قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.
- 1- الاسترأبادي رضي الدين، شرح كافية ابن الحاجب، تح: يوسف حسن عمر، جامعة قار يونس، بنغازي، ط: 2، 1416هـ - 1996م.
 - 2- الأنباري أبو البركات عبد الرحمن بن محمد، الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، المكتبة العصرية: صيدا - بيروت، 1424هـ - 2003م.
 - 3- الأنباري أبو البركات عبد الرحمن بن محمد، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تح: إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار: عمان - الأردن، ط: 3، 1405هـ - 1985م.

- 4- بحري سعيد حسن، علم لغة النص: المفاهيم والاتجاهات، مؤسسة المختار: القاهرة، ط: 2، 1424هـ- 2004م.
- 5- أبو تمام حبيب بن أوس، الوحشيات، تح: عبد العزيز الميمني، دار المعارف: القاهرة، ط: 3، (د، ت).
- 6- جبر محمد عبد الله، الأسلوب والنحو، دار الدعوة: الإسكندرية، 1409هـ- 1988م، (د، ط).
- 7- الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجاز، تح: محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ط: 3، 1413هـ - 1992م.
- 8- ابن جني أبو الفتح عثمان، الخصائص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط: 4، (د، ت).
- 9- حسان تمام، اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب: القاهرة، ط: 5، 1427هـ- 2006م.
- 10- درويش أحمد، دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث، دار غريب: القاهرة، (د، ط- د، ت).
- 11- ذو الرمة غيلان بن عقبة العدوي، الديوان، تح: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة: بيروت- لبنان، 1427هـ- 2006.
- 12- الزجاجي أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق، الإيضاح في علل النحو، تح: مازن المبارك، دار النفائس: بيروت، ط: 3، 1399هـ- 1979م.
- 13- ابن السراج أبو بكر محمد، الأصول في النحو، تح: الفتلي، مؤسسة الرسالة: بيروت، ط: 3، 1417هـ- 1996م.
- 14- سيبويه عمرو بن عثمان أبو بشر، كتاب سيبويه، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي: القاهرة، ط: 3، 1408هـ- 1988م.
- 15- الشاوش محمد، أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية، المؤسسة العربية للتوزيع، جامعة منوبة، تونس، ط: 1، 1424هـ- 2004م.
- 16- الشريف الجرجاني علي بن محمد، التعريفات، دار الكتب العلمية: بيروت، 1403هـ- 1983م، (د، ط).
- 17- العشماوي محمد زكي، قضايا النقد الأدبي، دار الكتاب العربي: بيروت، (د، ط- د، ت).
- 18- ابن فارس أحمد أبو الحسين القزويني الرلزي، الصاحبي في فقه اللغة ومسائلها وسنن العرب في كلامها، دار الكتب العلمية: بيروت، ط: 1، 1418هـ- 1998م.
- 19- الفيروز آبادي مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، تح: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة: بيروت- لبنان، ط: 8، 1426هـ- 2005م.
- 20- القرطاجني حازم، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1406- 1986.
- 21- الكندي امرؤ القيس بن حجر ، الديوان، تح: أنور أبو سويلم، علي الهروط، دار عمار: عمان- الأردن، 1411هـ- 1991م.
- 22- مراد وليد محمد ، نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند الجرجاني، دار الفكر، دمشق، ط: 1، 1402- 1982.
- 23- مصطفى محمد حسن ، فكرة النظم بين الحقيقة والوهم، مقال منشور بمجلة أبحاث كلية التربية، جامعة الموصل، المجلد: 6، العدد: 1، 1427هـ- 2007 م.
- 24- مصطفى جلال، تماسك النص وانسجامه (مقاربة في ضوء لسانيات النص)، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في تخصص اللسانيات التطبيقية، جامعة تلمسان، 1433هـ- 2013م.
- 25- مطلوب أحمد، عبد القاهر الجرجاني- بلاغته ونقده، وكالة المطبوعات: بيروت، ط: 1، 1393هـ- 1973م.
- 26- مندور محمد، الميزان الجديد، القاهرة، ط: 2، 1965.
- 27- النابغة الذبياني زياد بن معاوية، الديوان، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف: القاهرة، ط: 2، 1405هـ- 1985م.
- 28- ابن هشام الأنصاري أبو محمد عبد الله بن يوسف، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، تح: يوسف محمد البقاعي، دار الفكر: بيروت، (د، ط- د، ت).
- 29- أبو هلال العسكري الحسن بن عبد الله، الصناعتين، تح: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية: بيروت، 1419هـ- 1999م، (د، ط).

